



الباب الثاني
الجسم والنفس والروح



+

+

+

78 +

توصلنا فى الباب السابق إلى أن الإنسان يتكون من الجسد والنفس أو الروح وهو تلك القوة الخفية فيه والتي يتعامل بها مع عالم الغيب كما يظهر هذا من خلال نومه مثلا ، أما الجسد فمعلوم أنه يتعامل مع عالم الملك والشهادة بحواسه المعروفة وإدراكه المعتدل .

ونريد الآن أن نلقى نظرة مبسطة على الإنسان.. هذا المخلوق ذى القدرات العجيبه الذى يرى فى منامه كما يرى فى يقظته.. خليفة الله فى الأرض..

يقول تعالى فى سورة الحجر : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّى خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ويقول تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلٰلَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعَدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ويقول عز من قائل فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿٣﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ قَالَ يَتَّعٰدُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ وَقُلْنَا يَتَّعٰدُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾ ﴿٣٨﴾

ونستجلى من هذه الآيات الحقائق التالية :

أولاً : أن الله تعالى قد خلق آدم أباً للبشر من صلصال من حمأ مسنون (الطين المحمي) .

ثانياً : أن الله تعالى قد نفخ فيه من روحه .. وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس .

ثالثاً : أن الله تعالى قد علم آدم الأسماء كلها بينما كان علم

الملائكة قاصرا عن معرفتها.

رابعا : أن الله تعالى قد خلق آدم وذريته ليكون الخليفة في الأرض.

خامسا : أن الله تعالى قد جعل نسل آدم من ماء مهين في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة ثم خلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما وكسا العظام لحما.. وبعد ذلك أنشأه خلقا آخر..

سادسا : أن الله تعالى قدر الموت على بنى آدم، كلُّ إلى أجله.. ثم البعث يوم القيامة ليروا أعمالهم ويحاسبوا عليها.

سابعا : يكون الموت عندما تنفصل الروح عن الجسد انفصالا تاما، ونقول انفصالا تاما لأن هناك انفصالا غير تام يحدث عند النوم.. أمّا عند الموت، فيذهب كل جوهر إلى عالمه فالجسد الذى هو من طين يعود إلى الأرض التى خلق منها.. والروح تعود إلى بارئها جلَّ شأنه.

ويقول ﷺ "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، فو الذى لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" رواه مسلم.

وصدق رسول الله ﷺ فقد اثبت العلم الحديث أن الجنين لا تدب فيه الحياة إلا بعد مرور مائة وعشرين يوما من بداية الحمل.. وهى نهاية الشهر الرابع.. وقبل ذلك لا يكون به حراك.. ولكنه يتحرك عند نفخ الروح فيه كما يقول ﷺ.. وقبل ذلك يعتبر ميتا لا روح فيه..

وكذلك بعد الولادة.. يموت الإنسان.. إذا نزعته منه الروح.. فالروح هي مانحة الحياة للبدن..

فإذا نظرت لإنسان قد مات لتوه ، فانك لا ترى فارقا بين الحى والميت سوى أن القلب قد توقف عن النبض.. ، والرئتين عن التنفس.. ولا يجرى الدم فى العروق.. فيبرد البدن ويفقد الميت كل حواسه..

فهل معنى هذا أن الروح كان مركزها القلب ، وتضخ مع الدم فى العروق فلما مات الإنسان وتوقف القلب وتوقف الدم ، لم تعد الروح تسرى فى البدن فخرجت منه وتركته ميتا..، أم أن الروح وهى فى مكانها فى الجسم هى التى كانت تأمر القلب بالنبض ، ودفع الدم فى العروق حاملا معه سر الحياة إلى الجسد كله.. ، فلما فارقت الروح الجسد لسبب ما.. ، توقف القلب عن النبض وتوقفت بالتالى أجهزة الجسم الحيوية فحدث الموت !!!..؟.

الحالة الأولى تحدث عندما يقتل الإنسان فيتلف الجسد ولا يسرى فيه الدم فتتركه الروح.

والحالة الثانية هى حالة الموت العادى حيث تفارق الروح الجسد فيتوقف القلب ولا يجرى الدم فى العروق ويموت..

وما يهمنا فى الافتراضين هو أن الروح هى المحرك للبدن، وهى التى تمدّه بمقومات الحياة والمدارك والحركة.. أمّا الجسد فما هو إلا قالب مادى أرضى ترابى، خلقه الله من طين، وجعل الله له عينين ولسانا وشفيتين وأحسن خلقه وتكوينه ، وجعله وعاء للروح لا يتحرك ولا يعيش فى الدنيا إلا بها.. فهو حى بها.. ميت بدونها..

ويقول الأطباء أن الموت يحدث أولا فى المخ ، وهو المسيطر على القلب وهو الذى يرسل الإشارات الكهربائية إليه ، لتشغيله والائتمار

بأمره ضعفا وقوة.. فإذا تعطل المخ تعطل القلب بالتالى ومات الإنسان لعدم سريان الروح فيه..

فهل معنى هذا أن الروح التى نتكلم عنها يكون مكانها فى المخ وليس القلب !! وهى التى تأمر المخ ليرسل الإشارات إلى القلب بالنبض وسريان الدم، فإذا حدث الموت انفصلت الروح عن المخ وبالتالي لم يعد المخ قادرا على تشغيل القلب، فيتوقف القلب عن النبض ويتوقف الدم...!!!؟..

لقد سبقت الإشارة فى الباب الأول بأن المخ ليس فيه سوى مراكز عصبية للحواس والإدراك وأنه يرسل إشارات كهربية إلى القلب وإلى الأعصاب.. ولكنه لا يزيد عن كتلة من الخلايا الفسفورية.. فكيف تتم الرؤيا وكيف يتم السمع والإدراك والفهم والتفكير؟

وإذا كان الله تعالى قد نفخ فى الإنسان من روحه.. والروح من الله.. فلا بد أن تكون كاملة مكملة عارفة معرفة مؤمنة بطبعها، لأنها من الله حيث يقول فى سورة الحجر- ٢٩: ﴿...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾ إذا كيف يكون الإنسان تارة مؤمنا وتارة كافرا وفيه روح الله، وهى مؤمنة بجوهرها.

وسؤال آخر : من المعلوم أن الإنسان ينمو من الطفولة إلى الشباب.. إلى الكهولة.. ويتعلم مع نموه.. وتزداد مداركه وعلومه مع تقدمه فى السن..، فهل معنى هذا أن الروح التى فيه كانت جاهلة فى بدايتها، ثم تعلمت مع الزمن واتسعت مداركها...؟؟؟

والسؤال الأول وهو كون الإنسان مرة مؤمنا ومرة كافرا، إجابته محل نظر وسوف يأتى تفصيلها..

أمّا السؤال الثانى عن تدرج معارف الروح فمرفوض بالقطع..

ذلك لأنَّ الروح من الله تعالى.. كاملة عالمة بذاتها وبجوهرها لا يزيد علمها ولا ينقص.. هذا أمر بدهى.. أمَّا الذى يزيد وينقص فهو الجسد الترابى.. انظر قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم- ٥٤)

والمقصود هو الطفولة وضعفها.. والرجولة وقوتها.. والكهولة وضعفها..

ولكن قول الله تعالى: ﴿... وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل - ٧٠) ، يدل على أنَّ هناك علما مكتسبا خلال هذه الحياة.. وأنَّ الإنسان إذا بلغ أَرْدَلِ العمر يبدأ فى فقد ما تعلمه واكتسبه.. ويكون من الواضح أنَّ هُنَاك علماء موجوداً أصلاً فى الإنسان..وعلما آخر يُكْتَسَبُ خلال حياته المادية على الأرض..وسوف نتعرض بالتفصيل لكل منهما فيما بعد.

ولكن تساؤلنا يزداد حين نقرأ خطاب الله تعالى فى القرآن الكريم للإنسان.. يقول تعالى فى سورة الانفطار: ﴿يَتَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ ، ويقول فى سورة الحجرات: ﴿يَتَأْتِيَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴿١﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ ، ويقول فى سورة الأعراف: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ

ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٦٦﴾

والقرآن الكريم ملئ بالنداء : يا أيها الكافرون.. يا أيها المؤمنون... وكل هذا مفهوم ولكن الله تعالى لم يخاطب الروح مرة واحدة في جميع القرآن الكريم.. ليس هناك في القرآن أى خطاب للروح، ولا تكليف لها بعمل، ولا تأنيب على فعل، ولا أى ذكر من صفات حسنة أو قبيحة.

ولكننا نجد آيات كثيرة تخاطب شيئاً آخر ومسمى مختلفاً ألا وهى النفس.. يقول تعالى فى سورة الفجر: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

ويقول فى سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿١﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٢﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٣﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿٤﴾﴾

ويقول فى سورة يوسف - ٥٣: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴿١﴾﴾

وفى سورة القيامة: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾

وفى سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾

وفى سورة النحل - ١١١: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن

نَفْسِهَا... ﴿١١١﴾﴾

وفى سورة الحشر - ٩: ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

ويقول في سورة الطلاق-١: ﴿... وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ...﴾

ويقول في سورة الإسراء- ٢٥: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ...﴾

ويقول في سورة الأنبياء-٣٥: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

وآيات كثيرة غير ما ذكرنا وكلها مخاطبة للنفس أو وصف لها.

فترى أن النفس هي محل الخطاب في القرآن الكريم.. وهي مرة أمارة بالسوء ومرة لوامة.. ومرة مطمئنة.. وراضية.. ومرضية.. وهي محل التكليف والأوامر والنواهي ، وهي محل الحساب يوم القيامة والثواب والعقاب ، لذلك فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها..

وهي تموت.. وموتها هو خروجها نهائياً من البدن ، يقول تعالى في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

وتزداد تساؤلاتنا بالتفكير في آيات الله تعالى المنزلة في كتابه الكريم... فالله تعالى في معرض الحديث عن آياته في الكون واستجلاء حقائقها يذكر مسميات أخرى مثل القلب واللب والنهي والبصيرة والعقل كما في الآيات التالية :

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

(الحج-٤٦)

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ (المطففين-١٤)

﴿... إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾

(الكهف-٥٧)

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

شَهِيدٌ ﴾ ﴿٣٧﴾ (ق-٣٧)

﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ﴿٥٤﴾ (طه-٥٤)

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ﴿١٢٨﴾ (طه-١٢٨)

﴿... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٢٦٩﴾ (البقرة-٢٦٩)

﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿المائدة-١٠٠﴾

﴿... أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَوَلَّيْنَاكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿الزمر-١٨﴾

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿الملك-١٠﴾

﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿الرعد-٤﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴾ ﴿يونس-١٠٠﴾

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ﴿القيامة-١٤﴾

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف-١٠٨)

وتلاحظ أن الآيات تشير إلى التدبر والتفكر وأنه إنما يكون بالقلب ولأولى النهي ولأولى الأبواب وأولى البصائر.. فهذه المسميات هي محل الهواية والغواية في الإنسان.. فما هي صلتها بالنفس أو الروح!!

فإذا أردنا ان نعيد تنظيم تساؤلاتنا نقول :

ما هي النفس أو الروح !! وأين مكانها !! وما صلتها بالجسد !!
وما هي قواها الخفية التي تدرك بها وتتعامل بها مع عوالم الملكوت أو عوالم الغيب !!

وما صلتها بالقلب واللب والنهي !!

وأحب أن أشير قبل الإجابة على هذه الأسئلة إلي أن قول الله تعالى في سورة الإسراء- ٨٥ : ﴿ وَدَسَّوْنَاكَ مِنَ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي... ﴾ ، ليس فيه منع من الحديث عنها ، خاصة إذا كان في هذا الحديث سبيل إلى معرفة نفسك ومعرفة ربك وسبل الإيمان بالله تعالى.. ولكن اليهود كانوا قد سألوا رسول الله ﷺ عن ماهية الروح.. فكانت الإجابة أنها من أمر ربي.. لأن ما فيها من أسرار خفية لا تطيقها ذات البشرى وعقله المحدود.. وعلى العموم فقد كان المقصود بالسؤال في الآية الكريمة هو الروح الذي يقول الله عنه في سورة النبأ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾

كما أورد ذلك بعض المفسرين.. وليست المقصودة الروح التي نتكلم عنها...، ولقد كتب كثير من علماء المسلمين عن الروح مثل ابن القيم.. وأبو حامد الغزالي وابن سينا وغيرهم..، ولو كان الحديث عنها ممنوعا لما تكلموا عنها، وهم أهل تقوى وورع إن شاء الله.

واتباعا لأسلوبنا في هذا الكتاب فسوف نبتعد عن المصطلحات المعقدة التي يستعملها المتخصصون في هذا المجال وسوف نكتفي بالعرض المنطقي المبسط واستعارة أقل ما يمكن من تعبيراتهم.. والله المستعان.

● النفس الحيوانية :

وقد عرفوها بأنها جسم لطيف بخارى يحمله الدم الصادر من تجويف القلب المادى، ويسرى مع الدم فى العروق وباقى أجزاء الجسم..

وهى المسؤولة عن الحس والحركة فى الجسد والإدراك المادى وغير المادى فيه.. ففيها قوة الإبصار وقوة السمع وقوة الشم.. إلى آخره، وكذلك الإحساس المشترك أى المشترك بين الإنسان والحيوان وكذلك هو المشترك بين النوم واليقظة.

وهذه المقومات توجد فى الإنسان كما هى فى الحيوان، ولكن بدرجات متفاوتة..، فإن من الحيوانات من يعيش فى قاع البحر حيث الظلام الدامس، نظرا لعدم وصول أشعة الشمس إلى قاع البحر وبالتالي فليست له عينان لانهما لا ضرورة لهما فى عيشته..، وكذلك تجد بعض الحيوانات يمتاز بحاسة شم أقوى من الإنسان بكثير كالكلاب مثلا، فإن حاسة الشم عندها متميزة بقوة خاصة لا توجد فى الحيوانات الأخرى..

كما أنّ حاسة السمع عند القِطِّ مثلا تزيد بثمانية أضعاف قوة حاسة السمع عند الإنسان...، وسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى...

وقد سبق القول بأنّ هذه الحواسّ المادية ينتهى عملها بمجرد نقل ما تحس به إلى المخ ، فالعينان مثلا ينتهى عملهما بانطباع الصورة المصغرة المقلوبة على الشبكية فى قاع العين ونقل الأعصاب لها إلى مراكزها الخاصة فى المخ... وينتهى هنا دور إحساس النظر، أمّا الذى يقوم بترجمة هذه الصورة إلى أصلها الحقيقى ومعرفة شخصها وتمييزها من غيرها والاحتفاظ بصورتها لمعرفتها فيما بعد إذا تكررت أمامها.. فهذا هو ما يسمى بالإدراك.. وسوف نشرحه فيما بعد..

وقد سبق القول بأنّه توجد فى المخ مراكز عصبية للإحساس البصرى والسمعى والذوقى وخلافها... ولكنه لا يستطيع أن يميز هو بذاته هذه الأحاسيس ولا أن يُترجمها... ذلك لأنّ الذى يقوم بترجمتها وحفظها فى الذاكرة هى النفس وليس المخ... فالنفس بقوتها التى هى غير مرئية هى التى تسيطر على المخ الحيوانى اللحمى المادى ، فتأخذ من مركز إحساسه ما يراه ويسمعه ويشمه لتعطيك بعد ذلك معناه وقوته ولونه وأوصافه كلها.

حيث إن العلم الطبى البشرى إنما منتهاه هو تشريح المخ ودراسة خلاياه ولا يستطيع الوصول إلى النفس ، لذلك فإن منتهى علمه يكون بالمخ وخلاياه.. ولكنه لا يستطيع أن يقترب من حاجز النفس ، ولذلك ما زالت تساؤلاته قائمة عن كيفية ترجمة إشارات مراكز الإحساس بالمخ.

وبهذا التفسير المبسط نستطيع أن نفسر عملية الموت بأنّها لا هى موت المخ ولا هى موت القلب وتوقفه عن النبض.. ولكنها تحدث أساسا بترك النفس للجسد... فيتعطل المخ فوراً ولا يستطيع أن يرسل

إشاراتِهِ إلى القلب لتوقفه عن الإدراك والإحساس لخروج الطاقة التي تغذيه ألا وهي النفس كما قلنا فيموت المخ.. ويليه توقف القلب وعدم سريان الدم في الجسد ثم المظاهر الأخرى للموت ، وهذا إذا كان الموت طبيعياً ، أما في حالة القتل أو الحوادث التي تتلف الجسد فجأة ، فإن تلف الجسد أو جزء هام منه كالقلب مثلاً يجعله غير صالح لسريان الدم فيه... فإذا توقف الدم أو سال خارج الجسد لم تجد النفس لها مركباً تعيش وتتحرك فيه فتترك الجسد لأنه قد أصبح مسكناً غير صالح لها.. وتكرر مظاهر الموت السابقة.

ومن هنا كان عقاب الإسلام الشديد لإتلاف الجسد وقتل النفس.. وذلك لأنه بإتلاف الجسد الذي هو وعاء النفس خرجت منه وهي كارهة لخروجها.. وهي لم تخرج إلا لتلف منزلها وهو الجسد..

واعلم أن النفس ليست مقصورة ولا محبوسة في الجسد كالمادة في الوعاء، فليس الجسد حاوياً لها.. بحيث أنه لو أن إنساناً قطعت رجلاه مثلاً فإن نفسه يقتطع منها جزء على قدر الرجلين..، فليس الأمر كذلك..، إنما النفس مكتملة في الجسد سواء كان كاملاً أو ناقصاً..، فهي مكتملة فيه كله ومكتملة في الجزء الحي المتبقى منه أيضاً..، فهي ليست محصورة بأعضاء الجسم.. كما انها ليست خارجة عنه ، لانها لو خرجت لمات الجسد كما اسلفنا.. فهي إذاً لا محصورة فيه ولا خارجة عنه بالمعنى المتعارف عليها..، ولكن الأفضل أن نقول إن لها إشرافاً وتشوقاً وتعلقاً بالجسد وتديباً لشئونه من إحساس وإدراك وذلك بكيفية ما...، ولا تنتهي علاقتها به تماماً إلا عند الموت فقط، أما عند النوم فهي خارجة منه حكماً بكيفية مخصوصة، ولكن ما زال لها إشراف وتديب له..، وما زال هناك شعاع وارتباط بينها وبين الجسد ، والدليل هو أن النائم وإن كان لا يسمع، إلا أنك إذا أحدثت جلبة وضوضاء كبيرة حوله فإنه يستيقظ ، فهو لا يدرك إدراكه في اليقظة..،

ولكنه يزال على درجة من الإدراك وهو نائم .. وذلك لعلاقته القائمة مع النفس وهو نائم.

● قوى النفس الحيوانية :

حيث قلنا إن النفس الحيوانية هي التي تترجم ما يراه ويحسه الجسد بالحواس الخمسة المعروفة ، وحيث قلنا إن النفس هي التي ترسل الإشارات وتأمّر المخ وبالتالي تأمر القلب بضخ الدم وكذلك تأمر الجسد بالتحرك وخلافه، فيفهم من هذا القول بأن القوى الموجودة في النفس نوعان:

القوى المحركة، وهي التي لها سلطان مباشر على القلب والأعضاء فإذا خاف الإنسان من شيء ما .. أمّرت النفس القلب بضخ مزيد من الدم إلى الرجلين .. وأمّرت الرجلين بسرعة الجرى خوفاً من الخطر .. فهذه قوى محرّكة.

ومن الواضح أن الحركة تكون بناءً على إدراك بالخطر.. وهذا الإدراك هو ما نسميه بالقوى المدركة .. أي القوى التي تحس بالخطر وخلافه فتأمر القوى المحركة بإرسال الأوامر إلى المخ والقلب والأعضاء...

وهذه القوى المدركة قسماً قسم مدرك من ظاهر وهي التي تترجم رؤيتك الخطر أو سمعك بالنبأ السيئ .. فهذه القوى المدركة من ظاهر تكون أدواتها الحواس الخمس ..، فإذا أقبلت نحوك سيارة مسرعة ورأتها العين ، فهذه الرؤية تنتقل إلى المخ ، والمخ ينقلها إلى قوى النفس المدركة من ظاهر فتقدر درجة الخطورة.. وتأمّر قوى النفس المحركة بإرسال إشارة إلى المخ بسرعة الهروب من أمام السيارة.. فيرسل المخ الإشارات إلى القلب وإلى عضلات الرجلين

للجری السريع بعيدا عن الخطر الذى رأته العين أساسا...، هذا مثال
للقوى المدركة من الظاهر...

وهناك قوى أخرى مدركة من باطن.. وهذا الإدراك الباطنى هو
إدراك بالمنطق والعلم وليس بالحواس المعروفة..، مثال ذلك خَوْفُكَ
من السقوط من ارتفاع شاهق... فإنك لم تسقط.. وربما لم تر أحدا
يسقط.. ولكنك تدرك وتعرف خطورة السقوط من هذا الارتفاع.. فهذه
قوى باطنية تدرك من باطن النفس.. وفيها ذاكرة وعلم..،

ويربط بين القوى المدركة من باطن والقوى المدركة من ظاهر
ما أسميناه من قبل بالحس المشترك..، وهو الإحساس الذى يحول
إحساسك بالماديات إلى إحساس باطنى بالخوف أو السعادة أو الألم أو
خلافها، وكذلك يحول إحساسك بالألم أو معرفتك بالخطر المعنوى
إلى إدراك ظاهر على جسدك، وهذا الحس المشترك يعمل خلال
نومك أيضا.. وهو مشترك بين قوى النفس التى فى الحيوان وقوى
النفس التى فى الإنسان.

وموجز القول ان النفس لها قوى محرّكة، وقوى مدركة..، والقوى
المدركة نوعان قوى مدركة من ظاهر وتدرك المحسوسات. وقوى
مدركة من باطن وتدرك المعانى، ويربط بينهما ما يسمى بالحس
المشترك...

وقد علمنا أنّ هذه النفس الحيوانية قد أدخلت إلى الجسد منذ
كونه جنينا فى بطن أمه..، وحيث أن الجسد هو منفذها الوحيد للحياة
الدنيا.. وهو الوحيد المنفذ لرغباتها الأرضية..، لذلك فهى حريصة على
ضمان استمرار بقائه فى الدنيا.. وذلك حبا لنفسها ولدوام بقائها..،
لذلك فإن الغرائز الحيوانية منسوبة لها هى.. والجسد منفذ لها..،
وضمان بقاء حياتها الأرضية يستند أساسا إلى دافعين قويين فيها..

الأول هو الغضب.. والثاني هو الشهوة.. والمراد بالغضب هو كل إحساس بضرر... والشهوة هو كل إحساس بمنفعة...، فقوة الغضب في النفس إنما هي دفاع لها عن كل ضرر تتصور أنه يلحق بها.. سواء كان ماديا أو معنويا.. وقوى الشهوة في النفس إنما هي دفاع عن كل ما تتصور أنه يجلب لها منفعة في الدنيا..، فشهوة النساء.. والمال.. والأكل.. وكل ما يضمن للجسد استمراريته ودوامه في الحياة.. تكون النفس حريصة عليه..، فالمال وسيلة لتحقيق رغباتها في الدنيا.. والبنون وسيلة النفس لتحقيق العِزَّة بين الناس.. لذلك فهما زينة الحياة الدنيا.. لذلك يكون حرص النفس عليهما شديدا مع ما يستلزمها من شح بالمال خوفا من الفقر والاحتياج للناس، وكذلك الإكثار من البنين بآية وسيلة كانت حراما أو حلالا والوسيلة إلى البنين هي النساء...، إلى آخره ، لذلك يقول الله تعالى في سورة التغابن-١٦ : ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

ويقول (آل عمران-١٤) : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَٰئِٕمِ ﴿١٤﴾﴾

وتلاحظ أن هذه الشهوات مرتبة تبعا لمراتب نزوع الإنسان إليها في تدرج حياته ، ففي بداية الإدراك والشباب تبرز شهوة الإنسان إلى النساء والنساء إلى الرجال ، ثم بعد فترة تنكسر هذه الشهوة وينصب حب الإنسان على البنين والاعتزاز بهم والمتعة بوجودهم معه ، ومع بداية شيخوخته يهتم بالأموال والحرث. فانظر إلى دقة التعبير القرآني العظيم.

فالنفس حريصة بطبعها على كل هذا لأنَّ فيه عِزَّةَ الإنسان وتنعمة
في الحياة الدنيا..

كذلك حيث إن النفس حريصة على منح الجسد مقومات حياته
المادية والحفاظ عليه وعدم تعرضه للتلف... فهي التي فيها الإحساس
بالجوع والعطش والأمن والخوف والحب والبغض والفرح والحزن إلى
آخر هذه المشاعر... لأن هذه المشاعر لها فائدة عظيمة في ضمان
استمرار الحياة... فالغضب وإن كان من الصفات المذمومة إلا أنه يكون
في بعض الأحيان شرفاً وعِزَّةً... فمن يغضب لانتهاك محارمه أو محارم
الله تعالى.. فهو غضب محمود وضروري ليحافظ الإنسان على حياته
وتتوازن الأمور بين الناس... كذلك فإن غريزة البقاء في النفس هي
الدافع الجنسي للتناسل... ولولاه لما تزاوجت المخلوقات ولانتهت
أنواعها ووجودها... لذلك فهي محمودة بذاتها.. أمّا لو مارسها الإنسان
بغير حقها الشرعي ، ولم يراعِ فيها حلالاً ولا حراماً. فحينئذ يكون فيها
الإفراط المذموم ، والتكبر مثلاً من أَرذَل صفات النفس ، ولكن الكبرياء
والخيلاء على الأعداء في الحرب مطلوب ومحمود..

وهكذا تجد أن لكل صفة من صفات النفس حد اعتدال محمود
وحسن استخدام مطلوب... وكذلك إفراطاً في استخدامها ، وهو تجاوز
حد الاعتدال.. أو تفريطاً فيها بعدم استخدامها... والإفراط والتفريط
كلاهما مذموم..

فهذه الغرائز أو الصفات هي عِدَّةُ النفس لضمان استمرار حياتها
والحفاظ على حياة الجسد الذي تعيش فيه وهو نافذتها في الدنيا وهو
آلاتها التي تستخدمها.. ولكن عدم توازنها وسوء استخدامها هما
المذمومان..

● قدرة النفس الحيوانية على التعلم :

اتضح فيما ذكرناه أن التعلم يكون في قوى النفس المدركة أساسا... أمّا القوى المحركة فإنّها تتعلم أيضا ولكن تعلمه محدود وسريع... فالطفل عند ولادته.. يحس ويشعر ويجوع ويشبع ولكنه غير قادر على الحركة على قدميه .. ولكنه سرعان ما يقوم ويمشى خلال عام مثلا .. أمّا إدراكه للمعاني والخطر والعلوم فهذا يحتاج إلى زمن طويل واكتساب مما حوله... حتى الحيوانات المفترسة وهي في طفولتها تستطيع أن تتعامل معها وتحملها وتطعمها وتأنس إليها وهي لا تعرف خطرا من أمان... ولكنها بمرور الوقت تنشأ فيها الغرائز الوحشية وتبدأ في التعلم...

فالنفس تبدأ جاهلة أساسا.. ويزداد علمها مع الزمن.. ، فتميز الصبي الصغير غير تمييز الغلام.. غير تمييز الرجل.. وعلم الشيوخ وحكمتهم أكبر وأعمق من حكمة الشباب.. فالنفس تتعلم وتوسع مداركها وخبراتها بمقدار ما يمر بها من أحداث وما تتعلم.

يقول تعالى في سورة النحل : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

فالسمع والبصر والحواس الأخرى هي أدوات إدراك النفس الظاهر والأفئدة هي أدوات إدراك النفس الباطن للمعاني..

فالبداية هي الجهل بالمعلوم.. ثم جعل الله الحواس والإدراك وسيلتين للنفس لاستقراء الحوادث وتحليلها والاستفادة منها..

ولكى تتعلم النفس وتستفيد مما يمر بها فلا بد لها من ذاكرة

تحتفظ فيها بما تتعلمه ..، فإذا تكرر أمامها عرفته لسابق معرفتها به واحتفاظها بذلك في ذاكرتها.

وكذلك يلزم لها منطق للتفكير والتدبر فيما تفعله بناء على ما وعت من علم...

وبعض هذه القوى موجودة في الحيوان، ولكن بدرجات متفاوتة...، فالحمار مثلا يتعود على السير من منزل صاحبه إلى الحقل...، ولا شك أن لديه ذاكرة يحتفظ فيها في عقله بخط السير بحيث يعود من الطريق الذي جاء منه...، ولولا هذا لضلّ ولم يعرف كيف يعود...، ولاحظ أنه يعود من نفس الطريق...، ولا يفكر في السير في طريق آخر أقصر أو أفضل يوصله إلى مكانه كما يفعل الإنسان مثلا...، فلا شك أن الحمار عنده ذاكرة يحتفظ فيها بما يمر عليه...

ولكن القرد مثلا يتميز بأن لديه قدرة على التفكير والتدبير...، فإذا وضعت أمامه ثمرة عالية لا يستطيع الوصول إليها تراه يتحايل على الإمساك بها بعضا أو بالقفز مثلا..، فهو صاحب حيلة وتدبير..

فالحوانات التي يمكن تدريبها لديها بلا شك قوة تذكروها وذاكرة لحفظ ما يمرُّ بها من حوادث...، والحيوانات التي لديها قدرة على تدبير أمورها بتفكير وحيلة لديها قوة تدبُّر بالإضافة إلى الذاكرة...، فالتدبُّر شيء.. والتذكر شيء آخر..، هذه قوة وهذه قوة غيرها...، ولذلك يطلق على الحيوانات ذات التدبير كالقردة بأنها حيوانات أرقى من الأولى...، وعكس ذلك تجده في بعض الكائنات التي ليس لديها أي من هاتين القوتين..، ولذلك تسمى بالحيوانات الدنيئة أو الأقل رقا من الأولى، فأنت لا تستطيع أن تدرب عقربا مثلا ولا سمكة - غير الدلفين - لانعدام هاتين القوتين فيهما.

ومقصود الكلام هو أن نوضح لك أن الأنفس الحيوانية ليست

على درجة واحدة من القوى والإدراك..، فهي تتدرج من مجرد القدرة على الحياة في أبسط درجاتها دون إدراك إلا بأقل القليل مما يلزم لها لاستمرار حياتها وتناسلها..، وبين نفس الإنسان المتكاملة ذات الإدراك والتمييز والتفكير والتدبير والذاكرة..

وكما أن لنفس الحيوان درجات كثيرة متفاوتة فيما بينها. فإن نفس الإنسان كذلك لها درجات كثيرة متفاوتة فيما بينها..

وأنت تعلم أن الحيوان ليس عليه تكليف من الله تعالى..، ذلك لأنه خلق على درجة واحدة من المعرفة بالله والطاعة له..، خلقه الله على طاعته.. فلا يعصى..، ولا يترقى ولا ينحط، فالأنفس الحيوانية كما قلنا درجات كثيرة..، ولكن كل درجة على مستوى واحد من المعرفة بالله وطاعته وتسبيحه.. ولذلك فليست لها جنة ولا نار يوم القيامة.. ولكن يقتص يوم القيامة ممن ظلم منهم في بنى جنسه حتى يقتص من الشاة القراء التي نطحت أختها كما في حديث أبي ذر رضى الله عنه.

ولكنك ترى في القرآن الكريم كما ذكرنا لك من قبل آيات كثيرة تخاطب النفس وتتوعدها بالعذاب والنعيم.. فإذا كانت النفس الحيوانية هي محل طاعة جبرية لله تعالى بما خلقها الله عليه فكيف يكون لها وعد ووعيد وخطاب بأمر ونهى في الإنسان!!!!!!

بذلك نصل إلى قول علماء المسلمين بأن النفس المخاطبة في القرآن الكريم هي النفس الإنسانية...

● الفسر الإنسانية :

يقولون عنها : إنها لطيفة ربانية مجردة عن المادة في ذاتها
مقارنة لها في أفعالها.

وهي المخاطبة بالتكليف التعبدي في القرآن...، وهي محل
التوبيخ والتقريع ، وهي محل الإدراك والتعلم والتفكير والتدبر...، وهي
التي تكون نفسا أمارة بالسوء أو نفسا لوامة .أو ملهمة أو راضية أو مرضية
أو كاملة... صعودا وهبوطا في مستوى إدراكها وطاعتها لله تعالى
وعبادته ومعرفتها به جلَّ شأنه...

وهي التي يشار إليها مرة بالقلب .. ومرة باللُّب ومرة بالعقل...،
وكُلُّ هذه المسميات هي لها ، وكل مسمى هو خاص بها في درجة
من درجاتها...

ولتبسيط الأمر أضرب لك مثالا :

لنبدأ بشجرة من الأشجار تم قطعها ونقلها إلى النجار الذي قام
بدوره بتقطيعها إلى ألواح من الخشب ثم صقلها.. ثم صنع من هذه
الألواح كرسيًا مريحًا تجلس عليه...، فإن سألتك عن اسم ما تجلس عليه
أجبتني بأنه كرسي، فإن سألتك عن مادته قلت لي إنها خشب...، وإذا
سألتك عن أصله قلت لي إنه شجرة ، ولو سألت عالما في الكيمياء عن
جوهره لقال : " سيليلوز" (وهو الاسم الذي يطلقه علماء الكيمياء على
الخشب)..

إذا نستطيع أن نطلق هذه المسميات الأربع على الكرسي...،
فمرة نقول كرسي ، وتارة نقول خشب...، وأخرى نقول شجرة، وحينما
سيليلوز...، والأصل واحد، فالجواهر سيليلوز ، والوصف خشب...، والاسم

كرسى... والأصل شجرة..، ومن الممكن أن نتمادى فى سؤالنا عن جوهر السيليلوز لنعرف أنَّه عبارة عن ذرات من الأكسجين والأيدروجين والكربون ترابطت مع بعضها البعض بطريقة خاصة يعرفها أهل الكيمياء.. فصارت سيليلوز.

ورغم ذلك فإن إطلاقك أسماء: الخشب والكرسى والسيليلوز على الكرسى هو صحيح مجازا فقط، رغم أن الأصل واحد..، كما أنك لا تقول عن الشجرة أنَّها كرسى..، لأن الشجرة لها مواصفات خاصة، ومظهر يختلف عن الكرسى، والكرسى له مواصفات خاصة غير الشجرة فقد أضيفت إليه صنعة أخرى فقطع وهذب ولصق..، وعلى هذا فيجب أن يطلق على كل موجود اسمه الخاص به الذى يحمل فى معناه جوهره وصفاته، حتى وإن اتفقت الموجودات فى الجوهر فيظل الكرسى كرسيا والباب الخشبى بابا والمنضدة الخشبية منضدة..، ولكنك تستطيع أن تكسرهما جميعا وتشعل فيها النار وتستخدمهما كوقود كالشجر تماما..، لأنها من جنسه...

فإذا أدركت ما أعنى فى هذا المثال.. قلنا لك إن النفس والروح والقلب واللب والنهى هى مسميات لدرجات خاصة من درجات الروح أو النفس..، وكل درجة تتميز بميزة خاصة بها لا يدركها إلا أولو البصائر.. وهذه المميزات تكون من الصفات أو القوى التى فى النفس..

وقد سبق القول فى حديثنا عن النفس الحيوانية بأنَّها درجات متفاوتة وأنَّ أعلى درجة فيها هى درجة النفس الإنسانية التى هى بدورها تتفاوت فى درجاتها بمقدار ما فيها من صفات وقوى علوية..

أمَّا منتهى سمو النفس الإنسانية فهى النفس النبوية... وهذه لها خصوصية لا يجوز أن نتناول إليها لقصورنا التام عن فهمها.

نعود فنقول إن النفس الإنسانية لها مُركَّبٌ وظاهر على الإنسان تعيش به في الكون المادى وتتعامل معه... هذا المركب هو النفس الحيوانية وصفاتها وخصائصها...، فظاهر النفس الناطقة لنا هو النفس الحيوانية..

أما الباطن.. أقصد باطن النفس الإنسانية فهو متعدد ، أوله القلب وثانيه الروح وثالثه السر ورابعه سر السر وخامسه الخفى وسادسه الأخفى... ألا ترى أن الله تعالى يقول في سورة طه-٧ : ﴿... يَعْلَمُ

السِّرِّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾

وكل واحد من هذه المسميات أو الدرجات له عالم خاص يتعامل معه من عوالم الملكوت أو الغيب كما سبق الكلام عنه. ولا يبقى لدينا إلا درجة واحدة منها تتعامل مع عالم الشهادة و عالم المحسوسات، وهى درجة النفس الأمارة بالسوء...، أما النفس التى تليها فى الدرجة وهى النفس اللوامة أو درجة القلب إن شئت أن تقول فهى فى هذه الحالة يكون ظاهرها إلى عالم الملك المادى ، وباطنها إلى عالم الملكوت الغيبى...، لذلك فهى تستطيع بأسلوب خاص أن تتعامل مع العالمين بدرجات متفاوتة...

فإذا تصرفنا فى أقوال علماء المسلمين فى هذا الأمر بقصد الربط والإيضاح بين المعانى فإننا نقول :

● قولُ النفس الإنسانية والمركبة بالباطن :

الحس المشترك : وقد سبق تعريفه بأنه تلك القوى التى تترجم الإحساس المادى للجسد إلى معانٍ مفهومة... وكذلك تترجم المعانى

المجردة والمنطق الداخلى فى النفس إلى إحساس كخوف أو حب أو شهوة فيترجم صور البصر... وأصوات السمع وروائح الأنف ، لتعرضها بعد ذلك على خزينة الذاكرة وتقارنها بالمرئيات التى تعرفها أو الأصوات التى سمعتها من قبل.. بحيث تدرك النفس أن هذه الصورة هى صورة زيد من الناس وأن هذا الصوت هو صوت عمرو.. ولكل حاسة مُترجم.. ولكل حاسة خزانة خاصة بها.

كما أن هذه القوة هى التى تحول إحساسك بالخطر المعنوى أو المنطقى إلى حركة هروب أو مجابهة.

وهذه القوة قد تمرض.. وقد تقوى أو تضعف.. وقد تنعدم كذلك.. كما أنها ليست متساوية عند كل البشر.. وقد يكون مرضها أو انعدامها لسبب عارض مؤقت،

ولإيضاح ذلك نضرب مثلا نفرق به بين مرض الجسد ومرض النفس..

رجل عادى.. يرى ويسمع.. فقد بصره فجأة.. فما هو السبب؟.

قد يكون ذلك لمرض فى عينيه فلا تستطيع العدسة أن تلتقط الصور للموجودات التى أمامها.. وقد تكون العدسة سليمة ولكن الشبكية التى تنطبع عليها الصورة الواصلة إليها من العدسة بها خلل يمنع من طبع الصورة عليها.. وقد تكون أعصاب البصر فى المخ لا توصل الصورة إليه.. فكل هذه الاحتمالات الثلاث تمثل أمراضا فى الجسد وليس فى النفس..

ولكن يحدث أن تكون العين كلها سليمة.. والأعصاب سليمة ومراكز الرؤيا فى المخ سليمة ولكن الرجل لا يبصر!!!

عندئذ يفسر الاطباء الحالة بأنها حالة نفسية. حيث إن الجهاز البصرى المادى كله سليم ، ولكن ترجمة النفس للصور هو المريض..

وتلك حالة نقابلها عند الخوف الشديد أو الحزن الشديد إذا حدث للإنسان فجأة..، فيفقد بصره أو نطقه أو حركته فجأة.. وتشخص بأنها حالة عصبية. أو صدمة عصبية..، ففي هذه الحالة تكون قوى الحس المشترك للنفس غير قادرة على ترجمة ما نقل إليها من المخ المادى وقد تكون بعض الحالات المرضية للنفس مستمرة..، كحالة المعتوه مثلا. فهو يرى الصور كما يراها السليم ولكنه لا يستطيع تمييزها..، فالمعتوه هو فاقد القدرة على التمييز بين النافع والضار..، فرغم أَنَّهُ يرى الثعبان ثعبانا والحبل حبلًا، إلا أَنَّهُ لا مانع لديه من أن يمسك الثعبان بيده جاهلا خطره..، وقد يخاف من الحبل.

● قولُ الحكمة أو الحفظ :

وهي مستودع لكل ما يمر بالنفس من حوادث وخلافها. وهي جزء هام من قوة التعلم..، فهي كالمكتبة التي بها المراجع المختلفة لكل حاسة ولكل معلومة..، فإذا فقدت النفس ذاكرتها نسيت كل ما تعلمته وما عرفت..، وفي هذه الذاكرة يوجد ترتيب وأولويات.. فتحفظ المهم فالأقل أهمية.. وكذلك تنسى الأقل أهمية مع مرور الزمن.

وهذه القوة أيضا لها حد اعتدال وقوة وضعف..، ألم تر إلى الإنسان إذا رُدَّ إلى أرذل العمر كيف يزداد نسيانه ، وصدق الله حيث يقول في سورة النحل -٧٠: ﴿... وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾

نعم تشيخ النفس وتضعف الذاكرة ، ويرجع من هو في أرذل العمر إلى مراحل الطفولة الأولى في الذاكرة ورقة الإحساس..

وقوة الذاكرة يقابلها النسيان..، وكما أن الذاكرة نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان.. فكذلك النسيان من نعم الله تعالى. ولولاه لظللنا العمر كله نبكى حبيبا فقدناه أو كارثة ألمت بنا.

وللنسيان أيضا شرط لكي يكون نعمة.. وهو حد الاعتدال...، فلا هو دوام النسيان ولا عدم النسيان...، ولكن خير الأمور الوسط.
فالذاكرة باختصار هي مستودع المعلومات التي يكتسبها الإنسان في حياته وهذا امر معلوم لا يوجب الاستفاضة فيه.

● قوة التفكير أو التصبير :

وهذه من أخطر القوى في النفس البشرية فهي المركز الذي يتعامل مع المعقولات واللامعقولات والمسببات والنتائج...، وهي مركز "المنطق"...، ويتعامل مع الحس المشترك.. ومع الذاكرة ومع الخيال.. يأخذ ويعطى...، وهو الذي يفرق بين الصواب والخطأ...، وهو الذي يرجح الاحتمالات بعضها على بعض ، لذلك يقول تعالى في سورة آل عمران ١٩٠-١٩١ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾...، فانظر كيف قدّم الله تعالى للتفكر في خلق السموات والأرض وآيات الله تعالى أن يكون المتفكر من ذوى الألباب...، أى من ذوى الفهم الصحيح والإدراك الكامل...، ثم ثنى سبحانه وتعالى بأن هذا الفهم الصحيح والتفكير المعتدل لا يتأتى إلا بالنزاهة ذكر الله تعالى في كل

حالة من حالات العبد قائماً وقاعداً ومستلقياً.. لأن هذا الذكر وسيلة، إن لم يكن هو الوسيلة الوحيدة - كما سيأتي بعد - لتمام قوة التفكير والتدبر وتمام حسن الإدراك...

واعلم أن حُسْنَ التدبير وكمال التفكير في الأمور يسمى "حكمة"، وهي بعد النظر في العواقب، والتبصر بالأسباب والنتائج، وهي من أنوار الله تعالى وهبة منه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان-١٢)، ويقول جل شأنه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة-٢٦٩)، ويقول في سورة الأحزاب- ٤: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، ويقول في سورة ص- ٢٠: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُرَ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾.

فالحكمة مرتبطة بحسن التفكير وكمال التدبر، وقوتها فضل من الله وتوفيق منه تعالى، وكل قوى النفس نعم منه جل شأنه، ولكن يظل للتفكير ميزة خاصة كبرى.

● قوة الخيال :

وهي أخطر قوى النفس الإنسانية..، ذلك أن قوى الحس المشترك.. والذاكرة قد تكون لبعض النفوس الحيوانية على درجات مختلفة، أما

قوى الخيال فهي ميزة للنفس الإنسانية... وهي قوة خطيرة كُـلُّ الخطر.

خاصة إذا عرفت أن أدنى درجاتها هو حديث النفس أو الحدس وأعلاها وأشرفها هو الوحي...

وهذه القوة المتخيلة لها جانبان...

الأول خيالٌ حسيٌّ أو ماديٌّ وهو ما يختص بالصناعات والاختراعات وأمثالها، وهذه تستعين بقوى الحس المشترك لتحويل هذه الخيالات إلى ماديّات موجودة... فالذي يريد أن يبنى منزلاً فإنه يتصوره في قوى الخيال الحسي أولاً ثم يترجمه بصنعة ما إلى موجود مادي... فكل الاختراعات الموجودة أصلها وأساسها الخيال الحسيُّ في قوى النفس التخيلية... هذا هو الجانب الأول..

أمّا الجانب الثاني من قوى الخيال فهو جانب الصور المعنوية أو الصور العقلية، وهذه هي التي أدنى درجاتها الحدس أعلاها الوحيُّ كما قلنا... وبينهما يكون الإلهام...

وحديث النفس ببساطة هو الأفكار المتخيلة التي لم تقع أحداثها بعد ولكنها من باب التمني أو الخوف أو استجلاء بعض الحقائق..

فالظن مثلاً - وهو من حديث النفس - إنما هو تصورٌ لأمْر غير يقيني تتصور أنه قد حدث أو تنتظر حدوثه... ولكنك غير متأكد من هذا الظن فقد يكون وقد لا يكون بنسبة متساوية... أمّا إذا غلب احتمال عدم التأكد ففي هذه الحالة يسمى وهماً... فالوهم وهو أيضاً درجة من حديث النفس أقل من الظن في المرتبة، حيث إنه أقرب إلى عدم الواقعية وليس لك على اثباته دليل... بينما الظن قد يكون لديك أدلة متناقضة بعضها يُرَجِّحُ هذا الظن وبعضها ينفيه...

ولتبسيط الأمر نضرب مثلاً بسيطاً : فلنفرض أنك ذهبت إلى السوق وأنت في لباس عادي لا يلفت النظر، ولم تتصرف تصرفاً يلفت النظر إليك ، ولكنك تصورت أن أهل السوق يتحدثون عنك ويتهايمون فيما بينهم بخصوصك.. فإن هذا يكون وهماً ليس لك عليه دليل.. فهو وهم من نفسك لا سند له..

فإذا دخلت محلاً ووجدت رجلين فيه يطيلان النظر إليك ويتهايمان فيما بينهما، فإذا دنوت منهما سكتا ، وإذا غادرتهما عاوذاً النظر إليك والهمس..، فإذا تصورت ساعتها أنّهما يتهايمان بشأنك.. فهذا التصور هو ظن منك لأن أفعالهما من النظر إليك والتهايم فيما بينهما والسكوت إذا اقتربت منهما .. كل هذه الأسباب جعلتك تظن أنّهما يتحدثان عنك..، ولكن ما زال هناك احتمال آخر قائم وهو أنّهما يتحدثان في أمر خاص بهما وليست لك به علاقة.. وليس للأمر كله صلة بك ، فالاحتمالان.. قائمان لا ترجيح لأحدهما على الآخر..

فإذا ظننت سوءاً بغيرك دون برهان عليه فهو ظلم له ، وإثم في حقه ولا بد لك من التثبت ، لذلك يقول تعالى (الحجرات-١٢):
﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾

نعود فنقول إن من درجات قوى التخيل الهاجس والواجس.. وهما مجرد فكرة عارضة تعرض على عقلك دونما مقدمات منطقية قوية، والواجس أقوى من الهاجس.

فالواجس هو هجوم فكرة عليك ولكنها دليل ظني محتمل.. فسيدنا موسى عليه السلام عندما رأى سحرة فرعون وقد ألقوا بحالهم وعصبيهم فصارت تتحرك أمام الناس كالثعابين..، وقد عاش موسى في مصر ويعلم بالقطع قوة سحر هؤلاء السحرة لذلك أوجس في نفسه خيفة موسى..، فتداركه رب العزة والجلال (طه-٦٨): ﴿ قُلْنَا لَا

تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٣٨﴾

فالواجس عنده كان له أسبابه بظنه المرجح لديه.

أما الهاجس فليس له أسبابه المرجحة...

ومن درجات قوة الخيال أيضا، الهمة والعزم، والهمة هي استجماع الرأى فى النفس واستحسانها للقيام بعمل ما .. ولكن النية لم تنعقد بعد على الفعل..، أما العزم فهو استجماع الهمة وانعقاد النية على الفعل..، فالعزم أقوى من الهمة، والعزم هو أول ما يؤاخذ الله به العبد من درجات النية..، فالنية درجات وأعلاها العزم على الفعل، ولذلك يقول تعالى فى سورة آل عمران- ١٥٩: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، فالعزم ليس بعده إلا خروج الفعل إلى التنفيذ.

لذلك ترى التعبير الدقيق فى كتاب الله حيث يتحدث عن سيدنا يوسف عليه السلام حيث يقول فى سورة يوسف-٢٤: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا...﴾، فكيف يهيم بها سيدنا يوسف عليه السلام وهو نبي، والنبى معصوم باتفاق!!، والعصمة قبل النبوة وبعدها.. فلا يجوز لنبى معصوم أن تنعقد نيته أبدا على معصية الخالق جلّ وعلا.. فهذا أمر عظيم لا يصدر أبداً من نبي..

بعض المفسرين قالوا إنه هم ليضربها .. وهذا حسن .. أما الذين قالوا غير هذا فلا مانع أن نقبل تفسيرهم بشرط أن تعرف أن الهمة ليست هى النية، ولكنها حديث نفسى فقط وهذا أنسب كثيرا فى هذا المقام..، فسيدنا يوسف عليه السلام لم يعزم على الفعل أبدا.. وسياق القصة يدل على أنها هى امرأة العزيز قد انتقلت من مرحلة الهمة إلى العزم إلى الفعل..، فلما أدبر عنها سيدنا يوسف هاربا من غوايتها

لاحقته، وقدت قميصه من دُبُرٍ في محاولة يائسة لتنفيذها ما عقدت عليه العزم.. والله أعلم بمراده..

ولذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ عن من همّ بسيئة فلم يفعلها لم تكتب عليه.. وذلك لأن النية لم تنعقد على فعلها.. ولكنه حديث نفسي، ويقول ﷺ "عَفِيََ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ" .. أو كما قال ﷺ، أمّا من همّ بحسنة فلم يفعلها فإنها تكتب له حسنة. وذلك من فضل الله تعالى وجوده وكرمه على عبده.. فإن فعلها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء.. فأى كرم هذا!!! فإذا هم العبد بسيئة ولم يعملها خوفاً من الله . فإن الله تعالى يكتبها له حسنة، وذلك لأن العبد ذكر الله تعالى في نفسه وخاف من عقابه أو استحيا منه تعالى فأثابه الله على هذا التطهر في النفس بالحسنة عليه.. حيث إن النية هي من أعمال القلب للعبد.

ومن أعظم درجات قوة الخيال في النفس مرتبة الإلهام.. والإلهام نوع من الفتوح الرباني تُلقِيهِ الملائكة بالخير والرشاد والهدى في قلوب المؤمنين..، فيفرّق الإنسان بهذا الإلهام بين الخير والشر دون علم مكتسب منه..، ولكن بعلم ملقى عليه إلقاءً ، لذلك يقول تعالى في سورة الشمس : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ ، أي ألهمها بجنوده حسن التفرقة بين الفجور والتقوى والحكم الصحيح على الصواب والخطأ.. وليس المعنى كما يقال بأن الله تعالى قد ألهم النفس الفجور وألهمها التقوى ثم هي تختار.. ذلك أن الإلهام كما ذكرنا من الله تبثه الملائكة ، أمّا الفجور والإيعاز بالشر فلا يسمى إلهاماً ولكنه يسمى وسواساً، وهو من الشيطان وليس من الملائكة، يقول تعالى في سورة الناس: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴾

مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي
يُوسَّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴿

ويتبقى من قوة الخيال فى النفس مرتبة الوحي.. والوحي من
الله تعالى وهو على درجات أيضا..، يقول تعالى فى سورة الشورى
-٥١: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِئِهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ ﴿

والرسول المقصود فى الآية الكريمة هو الملك يوحى إلى البشر
ما شاء الله تعالى ، انظر إلى قوله تعالى فى سورة القصص: ﴿ وَأَوْحَيْنَا
إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا
تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴿
فالله تعالى أوحى إلى أم موسى وهى ليست من الرسل ولا الأنبياء..،
بل أوحى إليها بما هو عكس المنطق المعتاد المتعارف عليه ، فإن الأم
إذا خافت على وليدها فهى تضمه إليها وتخفيه عن الأعين بطريقة ما،
أما أن تجعله فى صندوق وتلقيه فى اليم حيث الموج والتيار والوحوش
والأسماك فذلك أمر لا يعقل ولا تقدم عليه أى أم باختيارها ولا
تفكيرها..، ذلك أن هذا الأمر قد أوحى إليها..، ألقى إليها فى قلبها
فنفذته..، ولذلك بعد أن نفذت ما أوحى إليها ورجعت إلى عقلها
البشرى وتفكيرها المعتاد يقول الله تعالى فى وصف حالتها هذه فى
سورة القصص - ١٠: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ
لَتُبَدَّىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴿
وقد صدق الله وعده وردّه إليها وجعله من المرسلين وسبحان خفى
الألطف ..

ومن الوحي ما يسمى النفثُ في الرّوع وهو من الله تعالى مباشرة... يقول ﷺ "إن روح القدس قد نفث في روعي ألا تموت نفس حتى تستوفى رزقها".

ومن الوحي من يكون منا ما كروية سيدنا إبراهيم يذبح ابنه.. ولكن لاحظ أنّ وحي النبوة .. فذلك غير الوحي للبشر... فتلك درجة خاصة من درجات قوى النفس .. فكما أنّ الحيوان لا يدرك معنى النفس الإنسانية فكذلك الإنسان لا يدرك أبدا معنى النفس النبوية... فهذه درجة لا يعلمها إلا الله تعالى .. وهي درجة خصوصية الخصوص من البشر، وأعلاهم نفسا وأقدسهم روحا وأغناهم سرا هو رسول الله محمد ﷺ ..

هذا ما قاله بعض علماء المسلمين في هذا الأمر على قدر ما علموا... وفوق كل ذي علم عليم.. وقد نقلناه إليك مع كثير من التصرف من جانبنا للإيضاح والشرح ، والله تعالى أعلم.

• مراحل النفس الإنسانية :

مما سبق نرى أنّ خلاصة الأمر هو أنّ الجسد يتعامل مع عالم الماديات، أمّا النفس أو الروح فهي تتعامل مع عالم الملكوت... ومقصودنا من هذا العرض المبسط كما رأيت هو إلقاء الضوء على النفس وقدراتها حيث أنّها محلّ التكليف والحساب والعقاب والتفكير والتدبر وهي المسؤولة عن تصرف الجسد وأقواله وأعماله... وقد ورد في الحديث الشريف أنّ الأعضاء البشرية في الإنسان تخاطبه كل صباح وتقول للسان اتق الله فينا. أي لا تدفعنا لفعل محرم.. من جراء كلامك.. فالأعضاء كما تعلم مسخرة للقلب وليس لها منفردة طاعة أو معصية.

كذلك فإن النية التي محلها القلب (أى النفس) هي التي تحدد كون الفعل حراما أو حلالا... وقد سبق إيضاح ذلك فى الباب الأول.. فمحل الحرام والحلال هي النفس ، وإنما الأعمال بالنيات.. وقصدك وجه الله تعالى فى العمل يجعله فى سبيل الله .. وقصدك غير وجه الله تعالى يكون رياء والعياذ بالله ، ولا تؤجر عليه..

ويقول علماء المسلمين أن النفس الإنسانية لها سبع مراتب... فالقلب له ظاهر.. وباطن..، أما ظاهره فهو الروح الحيوانية والتي يمكن أن نعبر عنها الآن بأنها مجموع قوتى الغضب والشهوة.. وهى القائمة على تدبير حياة الجسد المادية كما قلنا..، وله باطن وهو الروح أو النفس الإنسانية..، والقلب وسط بينهما، والروح الإنسانية لها باطن وهو السر والسر له باطن وهو سر السر..، وسر السر له باطن وهو الخفى..، والخفى له باطن وهو الأخرى...

فإذا مال القلب إلى الروح الحيوانية وائتمر بأمرها، وصار منفذا لرغباتها، صارت النفس المسيطرة على الإنسان هي النفس الأمارة بالسوء..، النفس الحيوانية البحتة وصار الإنسان كالبهيمة بل أضل..،

فإذا توازن القلب بين النفس الحيوانية والروح ، واصبح يحكم هذه مرة وهذه مرة فيكون ذلك هو مقام النفس اللوامة..،

فإذا مال إلى الروح وأحوالها وأصبح نظره إلى الروح الحيوانية هو مجرد استمرارية حياة الجسد الضرورية فيرتقى حينئذ إلى درجة النفس الملهمة وتزداد عنده درجة الإلهام..،

فإذا مال القلب بالكلية إلى عالم الروح وبدأ يستجلى عالم الغيب بقوة أعمق .. صارت درجة النفس فى هذه الحالة هي المطمئنة.

فإذا بدأ القلب بالاتصاف بصفات عالم الملكوت واضمحلته فيه

قوى النفس الحيوانية إلى أقصى اضمحلال لها صارت درجته هي
النفس الراضية...،

فإذا دخل القلب في أنوار تجليات الله تعالى وترك عالم
الملكوت أيضا...، فقد صار إلى مرتبة النفس المرضية...،

فإذا اكتمل بالأسرار الإلهية فقد انتقل إلى مرتبة النفس
الكاملة... في سورة الفجر ٢٧-٣٠: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾
أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي
جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

واعلم أن لكل مرتبة من هذه المراتب عالما خاصا من عوالم
الغيب تتعامل معه وتتصف ببعض صفاته... ألا ترى أن الماء يتلون بلون
الإناء...، فإذا كان الزجاج أخضر رأيت الماء أخضر.. وإن كان أحمر
رأيته أحمر.. وهكذا..

واعلم كذلك أن كل ما يقال لك عن عالم الملكوت أو أسرار
النفس لا يمكن فهمه ولا إدراكه بالعقل المجرد.. لاختلاف المقاييس
كما ذكرنا في الباب الأول..، ولكن هذه الأمور لا تفهم إلا بجلاء
الحقيقة للرأى فهما وذوقا، ولكننا أردنا أن نقرب الأمر إلى ذهنك
ومنطقك...، وكل ما نهدف إليه معرفة خفايا نفسك لكي تعرف أو تحاول
أن تعرف كيف تتعامل معها، والله الموفق المستعان..

● نور شرع الله في النفس :

كما سبق القول فإن قوة النفس التفكيرية أو التدبيرية التي تتميز

بالمنطق والمعقول واللامعقول تنفاوت درجاتها بين البشر..

وانظر معي إلى بعض آيات من كتاب الله ..

الأولى يقول في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا

لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٨﴾﴾

والثانية في سورة الأنعام - ٧٣: ﴿... قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾،

وقوله في سورة الأحزاب - ٤: ﴿... وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

فقد نسب الله تعالى الحق إلى نفسه.. ولكن عندما تتكلم
المخلوقات فهي تقول "الصواب".. فالحق هو الحق.. أما الصواب فقد
يختلف الناس فيه..

فالناس على حسب علمهم وإدراكهم وأزمانهم ومجتمعاتهم
يختلفون في هذين المفهومين ، الحق ، والصواب.

فما تراه أنت صوابا.. قد لا يراه غيرك صوابا..، ولو نظرت
إلى شخصين يتجادلان ترى كلا منهما يزعم أنه على صواب،
وأن الحق معه، والآخر على خطأ ﴿...وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ

جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ (الكهف-٥٤)

وحتى إذا عرف الإنسان أنه ليس على صواب فإنه قد يحاول أن يبرر
موقفه وأن يوجد المبررات التي تحول فعله أو قوله إلى صواب.. حتى
يوم القيامة تجادل كل نفس عن نفسها...

كذلك لو قارنت بين مجتمع غربي أوروبي بانفتاحه وانحلاله..

وبين مجتمع إسلامي بخلقه وآدابه ، فسوف تجد أن المحذور والخطأ عند المسلمين ليس بمحذور ولا خطأ عند غيرهم ..، والمجتمع الأوربي المنحل على استعداد ليجد مبررات كثيرة لأفعاله القبيحة...

إذا فكلمة المنطق أو الصواب تختلف باختلاف الناس والزمان والمكان... ولا يكاد البشر عموما يتفقون على مفهوم واحد إلا في أمور قليلة وهي الحقائق العلمية الثابتة...، أما السلوك والخلق فلا يمكن أن يتفقوا فيها ، وقد يحدث في بعض القضايا الفكرية أن ينبع رأيان متضادان .. وصاحب كل منهما يرى نفسه على صواب وأن غيره على خطأ...، وكل منهما مقتنع تماما بصوابه...، ولذلك فيوم القيامة يقول كل من أذن له الرحمن ما كان يراه صوابا من وجهة نظره..، ولكن لا بد أن يكون للقضية وجه واحد للحق وليس هناك غيره...، فهذان الاثنان وان ظن كلا منهما أنه على صواب إلا أن الحق لا بد أن يكون مع واحد منهما فقط ولا يمكن أن يكون في جانبين.

وهذا الحق لا يقدر على معرفته إلا الله تعالى.. لذلك قد نسب جل شأنه قول الحق إلى نفسه...، بل هو الحق نفسه جل جلاله.

فاختلاف قدرات الإنسان على التفكير واختلاف مدى علمه وحسن منطقته وإدراكه ، هي السبب في اختلاف مفهوم الخطأ والصواب عنده...، لذلك فلو تركنا لكل إنسان أن يحدد بمنطقه هو الخطأ والصواب وحدود المسموح به والعيب ، لما اتفق اثنان منهم على هذه الحدود..

لذلك فالحذر كل الحذر عندما تعرض عليك مسألة أن تكيفها حسب منطقك الخاص ومفهومك الذاتي ..، فمن الذي أخبرك بأن عقلك وتفكيرك هما العقل والتفكير السليمان المجردان عن الخطأ والهوى ، واللبس في الفهم وقلة الإدراك !!.

إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ كَانُوا يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى صَوَابٍ... وَالْفَرَسُ عِبَادَةُ النَّارِ كَانُوا يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى صَوَابٍ... وَالرُّومُ عِبَادَةُ الْمَسِيحِ كَانُوا يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى صَوَابٍ.. وَلَمْ يَكُنِ الْحَقُّ مَعَ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ... بَلْ إِنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...

فَالْحُكْمُ الصَّحِيحُ وَالْمَنْطِقُ السَّلِيمُ وَالْإِدْرَاكُ الْمَعْتَدِلُ إِنَّمَا يَكُونُ بِشَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ فَلَا يَصِحُّ إِلَّا مَا قَالَ عَنْهُ الشَّرْعُ إِنَّهُ صَحِيحٌ... وَلَا يَبْطُلُ إِلَّا مَا قَالَ الشَّرْعُ عَنْهُ إِنَّهُ بَاطِلٌ... فَهَذَا هُوَ الْمِيزَانُ الْمَعْتَدِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى... وَلِذَلِكَ كَانَتْ صِلَاحِيَّةُ الشَّرْعِ لِكُلِّ زَمَانٍ... وَلِكُلِّ مَكَانٍ وَلِكُلِّ مَجْتَمَعٍ... وَلِكُلِّ عَقْلٍ... فَهُوَ لِكُلِّ الْبَشَرِ عَمُومًا حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ... مَعَ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ... وَهُوَ لَا يَتَأَثَّرُ بِعَادَاتِ مَجْتَمَعٍ وَلَا تَقَالِيدِهِ وَلَا أَفْكَارِهِ وَلَا عِلْمِهِ وَلَا جَهْلِهِ.. وَإِنَّمَا اللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْبَشَرَ وَهُوَ الْأَعْلَمُ بِهِمْ وَبِمَا يَصْلِحُهُمْ.. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك-١٤)، فَهُوَ سَبْحَانَهُ الْأَعْلَمُ بِالْجَسَدِ وَالنَّفْسِ وَالرُّوحِ وَمَا يَصْلِحُهَا وَمَا يَفْسُدُهَا...

لِذَلِكَ فَلَيْسَ هُنَاكَ مِيزَانٌ لِعَقْلِكَ وَمَنْطِقُكَ إِلَّا مِيزَانُ الشَّرْعِ، وَحُكْمًا لِلشَّرْعِ، لِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿وَالسَّمَاءَ

رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾

فَهُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ... هُوَ شَرَعُ اللَّهِ تَعَالَى.. وَهُوَ ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّرُ، قَدْ اسْتَكْمَلَ وَأَتَمَّ بَعِثَةَ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَحِيَّاتِهِ وَسَلَامُهُ... فَمَنْ أَقَامَ شَرْعَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي مَجْتَمَعِهِ فَقَدْ أَقَامَ الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ... وَمَنْ مَالَ عَنِ مِيزَانِهِ إِلَى الْهَوَى فَقَدْ أَخْسَرَ الْمِيزَانَ كَمَا يَقُولُ تَعَالَى..

فإن قال قائل بأن الميزان المقصود في القرآن إنما هو ميزان
الموجودات والتناسق بينها بدليل قوله تعالى في سورة الحجر-١٩ :

﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾...، أو كما يقول علماء الطبيعة
بأن المادة لا تبنى وأنها ثابتة في الكون تتحول من صورة إلى صورة
ومن مادة إلى طاقة ومن طاقة إلى مادة، ولكنها ثابتة موزونة لا تزيد ولا
تنقص...، فإنني أوافق على هذا التفسير!!!، ولكن من قال إن آيات الله
تعالى ليس لها إلا وجه واحد للتفسير.

يجب أن تعرف أن الآيات التي لا تحتل إلا وجهها واحدا
للتفسير هي في الغالب آيات الأحكام والتشريع كالصلاة والصيام
وحدود الحرام والحلال ، وذلك حتى لا يختلف الناس في تفسيرها
فيحرم قوم ما يحله آخرون ، وتتدخل الأهواء ، والجهل وقلة الإدراك ،
ويؤدي كل هذا إلى سوء تفسير وفهم سقيم، لذلك يقول تعالى في
سورة النساء-٥٩: ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾
ويقول في سورة الشورى -١٠: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ... ﴾ ويقول في سورة الأحزاب-٣٦: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا
مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴾

أما الآيات التي ليس فيها تشريع ولا أحكام أو التي تتحدث عن
آيات الله في الكون ، ففهمها متروك للقارئ ، وإكرام الله تعالى له
طالما أن التفسير لا يخرج عن شرع الله قيد أنملة ، واختلاف المفسرين
الأوائل في معاني بعض الآيات خير دليل على ما نقوله.

فشرع الله تعالى هو الميزان.. وهو المرجع.. وهو الحكم
العدل..

لذلك فإن التفكير السليم.. والتدبر الحكيم.. وقوة النفس على الإدراك إنما يكون كل ذلك مرجعه وأساسه هو شرع الله تعالى..، انظر إلى قوله تعالى في سورة الشورى-١٣: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴾

وخلاصة القول هو أن من اتبع منطقَه وهواه فقد ضلَّ وأصلَّ..، ومن اتبع شرع الله تعالى فهو على نور من ربه وبصيرة..

فهذا هو نور الله تعالى الذى يفرق به الناس بين الحق والباطل وبين الخطأ والصواب ، انظر إلى قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿...قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ويقول فى سورة النساء-١٧٤: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ ويقول فى سورة الأنعام -٩١: ﴿ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ... ﴾

فمن الواضح ان شرع الله تعالى هو النور الهادى للعقل البشرى.. وهو الذى يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة.

وعلى هذا فإن قوة الإدراك فى النفس.. وقوة تدبيرها وتفكيرها إن لم تكن مستمدة من شرع الله تعالى ونور كتابه وأحكامه وحرامه وحلاله وتوجيهاته..، فإنما هى فى ظلام وجهل..، وكم فى القرآن

الكريم من آيات تؤكد هذا المعنى لمن يعتبر..

فالمؤمن الحق هو الذى يستمد آراءه وأحكامه من شرع الله تعالى وليس من عادات المجتمع وتقاليده... ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾ (الأنعام-١١٦)

وأكثر الناس لا يعلمون... أو يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون.

وعلى هذا فإن النفس الناطقة إن لم تكن على علم كافٍ بشرع الله تعالى وحدوده فلا يُعْتَمَدُ على قوتها التفكيرية ولا منطقها.. لذلك يقول ﷺ إن العلم بالتعلم ، وهذا هو العلم المنقول المكتسب الذى يصل قوة النفس ويهدها إلى الصراط المستقيم وهو شرع الله تعالى ، فالكافر أو الفاسق أو من لا يلتزم بتعاليم الإسلام لا تأخذ منه لا منطقا ولا تفكيراً سليماً.. يقول تعالى فى سورة الكهف-٢٨: ﴿... وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ ويقول فى سورة النجم- الآيات ٢٩-٣٠: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَنْ تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ ﴿

فمن لم يتعلم شرع الله ويستنر بنور شرعه فى إدراكه ومنطقه وتفكيره فقد كان أمره فرطاً.

وهذا ما قصدناه فى الباب الأول عندما ذكرنا لك تعبير الإدراك المعتدل فالإدراك المعتدل هو الإدراك المستنير بنور شرع كتاب الله تعالى وأحكامه.

• نور هادي الله في القلب :

ذكرنا فيما سبق نور الشرع المكتسب بالتعلم من كتاب الله وأحكامه... ولكن هل هذا هو فقط نور الله الذي يهدي به المؤمن؟!
الجواب لا، بل إن هناك نوراً آخر من الله تعالى... ولكنه غير مكتسب بجهد ولا بحيلة بل موهوب منه تعالى...

لقد قلنا فيما سبق أن من قوى النفس قوة خطيرة هي قوة الخيال وفيها يكون حديث النفس، وفيها يكون الإلهام والوحي... وكذلك الوسواس الذي هو من الشيطان...

روى الترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله "إن للشيطان لمةً يا ابن آدم، وللملك لمةً، فأما لمةُ الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمةُ الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان"، ويقول رضي الله عنه في الحديث المتفق عليه "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" ويروى الإمام أحمد وكذلك مسلم عن ابن عمر قوله رضي الله عنه "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء".

ويقول تعالى في سورة الأنعام - ١٢٥: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُخَوِّضْهُ فِي الْوَسْطِ الْوَسْطِ وَالَّذِي يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّهُ يَشِئْطُ بِهٖ ذُرِّيَّتًا مُّخَلَّقَةً يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْكَافِرِينَ﴾
يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه تجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء... ، قيل وكيف يشرح الله صدره يا رسول الله فقال: "هو نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد فتنبسط له الجوارح بالطاعات" أو كما قال رضي الله عنه.. ويقول الله تعالى في

سورة الأنفال- ٢٩: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَل لَّكُمْ
فُرْقَانًا...﴾ ويقول في سورة الحجرات الآيات ٧-٨: ﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّأَ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ ٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وواضح مما سبق من الأحاديث والآيات وكثير مثلها أن الفعال
الحقيقي لما يريد هو الله تعالى ، فهو يشرح صدر من يريد هدايته..،
وهو الذي يحب الإيمان إلى قلوب عباده..، وهو الذي يكره لهم الكفر
والفسوق والعصيان..، وإن القلوب بين إصبعين من أصابع قدرته جلَّ
وعلا..

ولو نظرت إلى أفعال العباد والتي هي أساس الحساب في
الثواب والعقاب يوم القيامة ، وحاولت أن تتدبر كيف يُحدِثُ العبد
الفعل أو يأتي بالعمل لوجدت هذا التسلسل الآتي :

يبدأ الأمر بخاطر في النفس.. إما خاطر شيطاني أو خاطر
رحماني فالخاطر الشيطاني هو الذي يأمر بالشر والمعصية..، والخاطر
الرحماني هو الذي يأمر بالخير والطاعة..، ثم يظل هذا الخاطر يزيد
قوة في نفسك حتى تنعقد النية على الفعل..، ثم العزم على الفعل ذاته،
ثم الفعل نفسه الذي تفعله بالجوارح..

فالباعث الأول للفعل هي خاطر الذي يأتيك..، وهذا الخاطر
أنت لا تستطيع ان تجلبه بنفسك ولا أن ترده بنفسك ، الا إذا جاءك
خاطر آخر مخالف له، فالخواطر تدفعها الخواطر..، وأنت بين
الخاطرين الأول والثاني لا حول لك ولا قوة اللهم إلا بقوتك

الفكرية.. فإذا كانت قوتك الفكرية مستنيرة بنور الشرع وأحكامه كان لك في نفسك وازعا إلى الخير..

وقد سبق القول أن قوة النفس الخيالية هي موضع استقبال تلك الخواطر والوسوسة والإلهام.. وعلى هذا فإن أفعالك كلها مصدرها وأساسها قوة نفسك الخيالية... وهذه الخواطر هجومية عليك.. من الله تعالى بلا مقدمات بل هي بين إصبعين من اصابع الرحمن.. جلت قدرته..

فإن كان الغالب على هذه الخواطر أنها رحمانية.. فذلك هو الخير لك، وإن كان الغالب عليها أنها شيطانية فذلك هو الشر...

وهذا هو نور الله تعالى الذى يقذفه فى قلب العبد المؤمن.. من عنده تعالى بلا اكتساب من العبد.. ولكن هدية ونفحة من رحمة الله.. وهذا هو النور الحقيقى حيث يقول ﷺ " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " كما رواه الديلمى ، وروى الديلمى أيضا عن السيدة أم سلمة قول الرسول ﷺ: " إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه" .. فهو مهدي بالله مستبصر به وبنوره ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى سورة النور-٣٥: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾

فنور الله تعالى هو نور الهداية ونور البصائر.. ونور القلوب الذى به يعرف العبد الخير من الشر..، والذى من حرم منه فقد صار أعمى..، وصار له عين لا يبصر بها..، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.. أى القلوب التى ترى بنور الله تعالى ، بنور هدايته فافهم...

ورغم أن هذا النور الموهوب من الله تعالى هو منحة منه جل شأنه..، إلا أن هناك طرقا لاستجلابه أيضا..، مثل طاعة الله وتقواه..،

يقول تعالى فى سورة البقرة - ٢٨٢: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾

فكل ما يستطيع أن يفعله العبد هو ان يجعل قلبه محلا لنور الله تعالى بالطاعة والتوجه إليه ثم ينتظر بعد ذلك فضل الله عليه...

ومن هذا ترى أن نور هداية الله نوعان..

الأول مكتسب بالتعليم وهو نور شرع الله،،

والثانى موهوب منه تعالى لمن اتقاه وأطاعه،

فإذا اجتمع النوران فى نفس العبد فهيناً له، " نور على نور" ..، نور ظاهر من الشرع..، ونور باطن من الله تعالى..، يهدى الله لنوره من يشاء.

وان كان العبد متزیناً بنور الشرع فقط عالماً بأحكامه وحلاله وحرامه...، فإنما هو فى جهاد كبير مع نفسه، ومع خواطره حتى يستقيم حاله.

وإن أحبَّ الله عبداً، وسبق كرمه إليه فهده لنوره الباطن فقد فاز فوزاً عظيماً، وحينئذ فإن الله تعالى يعلمه ويهيئ له أسباب العلم الظاهر أيضاً ويحفظ عليه الشريعة وأحكامها.. ويقول جلَّ شأنه فى سورة الكهف - ٦٥: ﴿... وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ .

* * *

موجز الباب الثاني

فإذا أردنا أن نلخص ما وصلنا إليه في هذا الباب نقول :

• الجسد : هو القالب الحيوانى البشرى الذى يتعامل مع عالم الشهادة ويأتمر فى كل أفعاله بأوامر النفس.

• النفس الحيوانية : هى ذلك البخار اللطيف الحامل للحياة والحس والحركة ومركبه الدم وقوته الغضب والشهوة.

• النفس الإنسانية : هى جوهر فى ذاته مقارن للمادة فى أفعالها ويطلق عليه أسماء الروح والقلب والبصيرة.. إلى آخره.

• النفس لها التفكير والعلم والوهم والخيال أمّا الحس المشترك والشعور فهى التى تترجمه إلى الجسد ومن الجسد إليها ، ورغم ذلك فقد تحس النفس بذاتها دون الجسد مثلما يحدث خلال النوم أمّا الجسد فله الفعل والحركة.

• الموت هو انعدام القدرة على الحركة فى الجسد ، ولكن يظل فى النفس علمها وعقلها وشعورها وبذلك ينقطع عملها بالموت لانعدام الجسد ، ويبقى إحساسها وإدراكها معها.

• أهم قوى النفس

- الحس المشترك وهو الذى يترجم المحسوسات إلى معنويات والمعنويات إلى محسوسات.

- قوة الذاكرة وهى التى تحفظ كل ما يمر بها.

- قوة التفكير وهى صاحبة المنطق والتفكير.

- قوة الخيال وهى محل الوسوسة والإلهام والوحى.

• درجات النفس الإنسانية :

- الامارة بالسوء وهي المطيعة للنفس الحيوانية.

- اللوامة وهي مرتبة القلب ولها وجه إلى الدنيا ووجه إلى الآخرة.

- الملهمة وهي مرتبة الروح ولها انشغال بعالم الملكوت.

- المطمئنة وهي مرتبة السر ويغلب عليها عالم الملكوت.

- الراضية وهي مرتبة سر السر حيث تنجلي لها حقائق الموجودات.

- المرضية وهي مرتبة الخفى وهي تتميز بأنوار الصفات الإلهية.

- الكاملة وهي مرتبة الأخرى حيث التجليات الإلهية.

• الأفعال أساسها الخواطر الرحمانية والملكية والشيطانية.

• نور الله المكتسب : هو العلم بشرع الله تعالى وتعلمه وهو النور الظاهر.

• نور الله الموهوب : وهو العلم بالله تعالى لمن اتقى وصدق وهو النور الباطن.

* * *



نسأل الله تعالى أن ينير بصائرنا بنورها الظاهر والباطن وأن يهدينا
لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا هو وأن يصرف عنا سيئها لا يصرف
عنا سيئها إلا هو، وأستغفر الله تعالى مما قلت إلا قولاً هو من عند الله
ورسوله

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

